

قصص الأنبياء بين كتابي سرائر أسرار النطقاء وفصوص الحكم (دراسة مقارنة)

فائز مرشد لدين الله

جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: 441106999@student.ksu.edu.sa

حسان أبو المكرم

جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: 441106680@student.ksu.edu.sa

عبد الله بن أحمد الباتلي

جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: 443106341@student.ksu.edu.sa

المستخلص

يتناول هذا البحث دراسة مقارنة لقصص الأنبياء كما وردت في كتاب سرائر أسرار النطقاء لجعفر بن منصور اليماني وكتاب فصوص الحكم لمحيي الدين ابن عربي، مع التركيز على تحليل المنهج التأويلي الذي اعتمده كل منهما في تفسير تلك القصص. ويهدف البحث إلى الكشف عن كيفية توظيف المؤلفين لقصص الأنبياء في بناء تصوراتهم العقديّة، وبيان أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما في المنهج والنتائج. وقد اختيرت قصة نوح عليه السلام نموذجًا تطبيقيًا لما تحمله من دلالات مركزية في القرآن الكريم، ولما شهدته من تأويلات باطنية وصوفية لدى المؤلفين، تبتعد في عدد من المواضع عن المعاني الظاهرة للنصوص الشرعية. واعتمد البحث المنهج التحليلي المقارن، من خلال دراسة النصوص الواردة في الكتابين وتحليلها في ضوء منهج جمهور المفسرين من أهل السنة والجماعة. وتوصل البحث إلى أن كلا الكتابين يشتركان في اعتماد التأويل الباطني للنصوص، غير أن هذا التأويل يوظف عند جعفر اليماني لخدمة عقيدة الإمامة في الفكر الإسماعيلي، بينما يوظف عند ابن عربي ضمن الإطار الصوفي الفلسفي، وعلى رأسها القول بوحدة الوجود، مما أدى إلى تقديم تفسيرات تختلف عن المعاني الظاهرة للنصوص الشرعية.

الكلمات المفتاحية: قصص الأنبياء، التصوف، التأويل الباطني، جعفر بن منصور اليماني، ابن عربي.

STORIES OF THE PROPHETS BETWEEN THE BOOKS SARĀ'IR ASRĀR AL-NUṬAQĀ' AND FUṢŪṢ AL-ḤIKAM (A COMPARATIVE STUDY)

Faiz Mursyid Lidinillah

King Saud University, Riyadh, Kingdom of Saudi Arabia
Email: 441106999@student.ksu.edu.sa

Hassan Abul Mukarram

King Saud University, Riyadh, Kingdom of Saudi Arabia
Email: 441106680@student.ksu.edu.sa

Abdullah Ahmed Albatli

King Saud University, Riyadh, Kingdom of Saudi Arabia
Email: 443106341@student.ksu.edu.sa

Abstract

This study presents a comparative analysis of the stories of the prophets as found in Sarā'ir Asrār al-Nuṭaqā' by Ja'far b. Maṣṣūr al-Yaman and Fuṣūṣ al-Ḥikam by Muḥyī al-Dīn Ibn 'Arabī. It focuses on examining the interpretive approaches employed by both authors, particularly their use of allegorical and esoteric interpretations in understanding prophetic narratives. The research aims to identify how these narratives are utilized to support their theological perspectives, as well as to highlight the similarities and differences between them in both methodology and conclusions. The story of Prophet Noah (peace be upon him) is selected as a case study due to its central significance in the Qur'an and the distinctive interpretations presented by both authors, which often diverge from the apparent meanings of the scriptural texts. This study adopts a comparative analytical method by examining relevant passages from both works and analyzing them in light of the understanding of Ahl al-Sunnah wa al-Jamā'ah. The findings reveal that both works rely on esoteric interpretation; however, Ja'far al-Yaman employs it to support the doctrine of Imamate in Ismaili thought, whereas Ibn 'Arabī uses it to establish philosophical Sufi concepts, particularly the doctrine of the Unity of Being, leading to interpretations that depart from orthodox textual understanding.

Keywords: Stories of the Prophets, Sufism, Esoteric Interpretation, Ja'far ibn Maṣṣūr al-Yaman, Ibn 'Arabī.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضلله ومن يضلله فلا هادي له، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله، أما بعد:

فإن الله عزوجل قد أنزل القرآن تبياناً وهدى ونوراً للناس، كما قال تعالى: **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ [الإسراء: 9]**، وقد اهتم المسلمون به وبما جاء فيه من شريعة وقصص للأنبياء عليهم السلام؛ لما تحمله تلك القصص من العبر والعظات، وما فيها من بيان سنن الله في الدعوة والإصلاح. غير أنه قد دخلت عبر التاريخ آراء وأهواء باطلة حاول أصحابها نشرها بين المسلمين بشتى الطرق والأساليب، فعمدوا إلى النصوص الشرعية وقصص الأنبياء عليهم السلام، فحرفوها عن معانيها

الصحيحة، وأولوها تأويلات بعيدة، ليجعلوها دليلاً على معتقداتهم الفاسدة، فأدخلوا تأويلات لا تتوافق مع ما عليه جمهور المفسرين، ونسبوا إلى الأنبياء عليهم السلام ما لا يليق بمقامهم الشريف. ومن الكتب التي ظهر فيها هذا النوع من التأويلات والتحريفات (كتاب سرائر أسرار النطقاء لجعفر بن منصور اليماني، وكتاب فصوص الحكم لمحبي الدين ابن عربي)، حيث تناول الكاتبان قصص الأنبياء عليهم السلام بأسلوب تأويلي باطني، وظفاه لخدمة أفكارهما العقديّة. ومن هنا جاء اختيار هذا الموضوع بعنوان: قصص الأنبياء بين كتابي سرائر أسرار النطقاء وفصوص الحكم (دراسة مقارنة)؛ وذلك للكشف عن أوجه الانحراف في استدلال جعفر بن منصور اليماني وابن عربي بهذه القصص على معتقداتهما، مع بيان أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما في المنهج والنتائج.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

1. بيان مكانة جعفر اليماني وابن عربي عند الصوفية والباطنية.
2. إظهار اعتماد جعفر اليماني وابن عربي على النصوص بمنهج تأويلي منحرف في الكتابين.
3. الكشف عن بعض الأقوال الباطلة التي اشتمل عليها الكتابان بحسب ما يتيسر من الدراسة.
4. بيان استفادة ابن عربي من الباطنية لاتحاد المنهج مع اختلاف المقاصد والأهواء.

أسئلة البحث:

1. ما هو المنهج عند كل من جعفر بن منصور اليماني وابن عربي في تفسير قصص الأنبياء؟
2. ما هو أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما في توظيف هذه القصص؟
3. ما هي مخالفة التأويلات لظاهر النصوص الشرعية وفق منهج أهل السنة والجماعة؟

أهداف البحث:

ويهدف البحث إلى:

1. بيان المنهج التأويلي عند كل من جعفر بن منصور اليماني وابن عربي في تفسير قصص الأنبياء.
2. الكشف عن أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما في توظيف هذه القصص.
3. إبراز ما في هذه التأويلات من مخالفة لظاهر النصوص الشرعية وفق منهج أهل السنة والجماعة.

منهج البحث:

يعتمد هذا البحث على المنهج التحليلي المقارن، وذلك من خلال جمع النصوص المتعلقة بقصص الأنبياء من الكتابين، وتحليلها، ثم مقارنتها في ضوء أصول التفسير عند أهل السنة والجماعة، مع التركيز على قصة نوح عليه السلام بوصفها نموذجاً تطبيقياً للدراسة.

الدراسات السابقة:

في حدود اطلاع الباحث، لا توجد دراسة مقارنة تناولت كتاب سرائر وأسرار النطقاء وكتاب فصوص الحكم من حيث توظيف قصص الأنبياء، وهو ما يسعى هذا البحث إلى معالجته وتحقيقه.

البحث

ولما كان الوقوف على مناهج المؤلفين متوقفاً على معرفة خلفيتهما العلمية والفكرية، كان من المناسب أن يُمهد لذلك بالتعريف بهذين المؤلفين وبيان أبرز معالم كتابيهما، تمهيداً للدخول في المقارنة التحليلية بينهما.

1. التعريف بجعفر بن منصور اليماني (1):

هو جعفر بن منصور اليماني الحسن بن فرج الكوفي، من أهم زعماء الديانة الإسماعيلية (2)، كان شاعراً ومؤلفاً للكتب الإسماعيلية، ونشط في عهد العبيديين، لما توفي والده ابن حوشب هاجر إلى المغرب، وأصبح ذو احترام ومكانة في الدولة العبيدية.

ويعد كتابه سرائر أسرار النطقاء من أقدم المصنفات الإسماعيلية التي تناولت قصص الأنبياء عليهم السلام، حيث عرض فيه رموزاً وإشارات تأويلية يزعم أنها من معارف حكماء الدعوة الإسماعيلية، كما يعد من الكتب المؤلفة للدفاع عن المذهب الإسماعيلي وترسيخ مبادئه العقديّة. وقد توفي عام 380 هـ.

2. التعريف بمحيي الدين ابن عربي (3):

(1) انظر: ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، عيون الأخبار، الجزء: 5 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1418 هـ)، ص 150، وظهير، إحسان إلهي، الإسماعيلية: تاريخ وعقائد (الرياض: مكتبة بيت السلام، د.ت)، ص 704.
(2) أشهر ألقابهم: الباطنية، وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً. انظر: الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، الجزء: 1 (مؤسسة الحلبي، د.ت)، ص 192.
(3) انظر: الكنتي، محمد شاکر، فوات الوفيات، التحقيق: إحسان عباس، الجزء: 3، الطبعة: 1 (بيروت: دار صادر، 1974 هـ)، ص 435 - 436، ومحيي الدين ابن عربي، فصوص الحكم، تحقيق: أبو العلا عفيفي، الجزء: 1 (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت) ص 12 - 13.

هو محمد بن علي بن محمد، الشيخ محيي الدين أبو بكر الطائي الحاتمي الأندلسي، والمعروف بابن عربي، صاحب التصنيفات الكثيرة في التصوف (4) وغيره، ولد في شهر رمضان سنة 560 هـ في الأندلس، ومن تصانيفه: الفتوحات المكية وفصوص الحكم.

وقد قسم كتابه فصوص الحكم إلى سبعة وعشرين فصًا، نسب كل فص منها إلى أحد الأنبياء عليهم السلام، وسعى من خلاله إلى تقرير معان صوفية وفلسفية، انتهى فيها إلى القول بعقيدة وحدة الوجود (5)، التي تقوم على القول بوجود صلة بين الخالق والعالم حتى يجعل الموجودات كلها مظهرًا للوجود الإلهي.

كما ادعى ابن عربي أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كتب له الفصوص بنصه وسلمه إياه يدًا بيد، وأمره بإخراجه إلى الناس، وقد أنكر عدد من العلماء ما اشتمل عليه هذا الكتاب من الأقوال، ومن ذلك ما قاله الذهبي: "ومن أردأ تواليفه كتاب (الفصوص)، فإن كان لا كفر فيه، فما في الدنيا كفر (6)". وقد توفي سنة 638 هـ.

وبعد هذا التعريف الموجز بالمؤلفين وكتائبيهما، يمكن الانتقال إلى دراسة أوجه الاتفاق العامة بين الكتابين في تناول قصص الأنبياء عليهم السلام:

المبحث الأول: مقارنة عامة بين كتاب سرائر أسرار النطقاء وفصوص الحكم: أوجه الاتفاق:

يتفق الكتابان في الاهتمام بقصص الأنبياء عليهم السلام، إذ جعلنا هذه القصص محورًا أساسيًا في عرض أفكارهما، ولذلك اعتنينا بذكر عدد من قصص الأنبياء، ولا سيما قصص أولي العزم من الرسل. فقد اشتمل كتاب سرائر أسرار النطقاء على عشرين قصة، في حين اشتمل كتاب فصوص الحكم على سبع وعشرين قصة، وجميعها مرتبطة بالأنبياء عليهم السلام، باستثناء ذكر بعض الشخصيات مثل آصف بن برخيا وخالد بن سنان.

(4) التصوف هو: "تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخاد صفات البشرية، ومجانبة الدعاوى النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقة، واستعمال ما هو أولى على السرمودية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله تعالى على الحقيقة، واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشريعة". انظر: الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، الجزء: 1، الطبعة: 1 (لبنان، دار الكتب العلمية بيروت، 1403 هـ)، ص 59.

(5) وحدة الوجود: مذهب يقول إن الله والعالم حقيقة واحدة. انظر: عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، الجزء: 3، الطبعة: 1، (عالم الكتب، 1429 هـ)، ص 2412.

(6) انظر: الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، الجزء: 23، الطبعة: 3 (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1985 هـ)، ص 48.

كما يشترك الكتابان في الاعتماد على التأويل الباطني للنصوص الشرعية، وهو تأويل ينصرف عن المعاني الظاهرة المتبادرة، ويجعل لها معاني رمزية باطنية، ويحمل النصوص على دلالات رمزية ومعان باطنية تخدم البناء الفكري لكل مؤلف. ومن أوجه الاتفاق كذلك الاستناد إلى بعض الروايات والأخبار التي يغلب عليها الضعف أو الوضع، مع توظيفها في تقرير معان مخصوصة لا يدل عليها ظاهر النصوص. ويظهر من خلال ذلك أن الكتابين جعلوا قصص الأنبياء وسيلةً لتقرير تصورات عقدية تتجاوز المقاصد الأصلية الواردة في النصوص الشرعية، وذلك من خلال القراءة الرمزية والتأويل الباطني.

نماذج تطبيقية:

من النماذج الدالة على هذا المسلك ما ورد في تأويل قوله تعالى: يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا [هود: 52] حيث فسّر المراد بالسمااء بالمعارف العقلية⁽⁷⁾ لا بالمطر المعروف في ظاهر الآية. ومن ذلك أيضًا ما ورد في تفسير ابتلاء أيوب عليه السلام، إذ حُمل البلاء على الحجاب والجهل بالحقائق⁽⁸⁾، لا على المرض الذي دلت عليه النصوص المشهورة عند أهل التفسير⁽⁹⁾. ومن الأمثلة كذلك ما أورده من بعض الروايات غير الثابتة، مثل ما ذُكر في قصة سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن القيامة وإشارته بثلاثة أصابع، ثم تحمّل هذه الإشارة معاني باطنية، وربطها بظهور الولي بعد ثلاثين سنة من التقية⁽¹⁰⁾. ويمتاز كتاب فصوص الحكم بامتزاجه الواضح بالتصوف الفلسفي، حيث قرر فيه ابن عربي عقيدة وحدة الوجود، ومن عباراته في ذلك قوله: فما أنت هو بل أنت هو⁽¹¹⁾. كما اعتمد في بنائه الفكري على مصادر متعددة من القرآن والسنة وعلم الكلام والفلسفة، مع استخدام مصطلحات معقدة وإشارات رمزية يزعم أنها من علوم الباطن التي لا يدركها عامة الناس⁽¹²⁾.

وخلاصة ما سبق:

(7) انظر: محيي الدين ابن عربي، فصوص الحكم، تحقيق: أبو العلا عفيفي، الجزء: 1 (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت) ص 71.

(8) المصدر السابق، ص 173.

(9) ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، الجزء: 8، الطبعة: 2 (الرياض، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1420 هـ)، ص 233، والسعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن، التحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحي، الجزء: 1، الطبعة: 1 (مؤسسة الرسالة، 1420 هـ)، ص 528.

(10) انظر: اليمني، جعفر بن منصور، سرائر أسرار النطقاء، تحقيق: مصطفى غالب (بيروت: دار الأندلس، 1984 م)، ص 60.

(11) انظر: محيي الدين ابن عربي، فصوص الحكم، تحقيق: أبو العلا عفيفي، الجزء: 1 (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت) ص 69-70.

(12) المصدر السابق ص 16 و 68..

يتبين مما تقدم أن كتاب سرائر أسرار النطقاء وكتاب فصوص الحكم يشتركان في اتخاذ قصص الأنبياء مادة أساسية لبناء أفكارها العقدية، كما يشتركان في اعتماد التأويل الباطني للنصوص القرآنية والروائية بما يخرجها عن ظاهرها المعروف عند أهل العلم.

وإذا كان هذا العرض قد أبرز أوجه الاتفاق العامة بين الكتابين في اعتماد التأويل الباطني واتخاذ قصص الأنبياء مادة لبناء التصورات العقدية، فإن النظر الأعمق يقتضي الانتقال إلى تحليل المنهج الذي سلكه كل منهما على وجه التفصيل، وبيان الأهداف التي تحكم هذا التوظيف للنصوص، وهو ما سيتضح في المبحث الآتي:

المبحث الثاني: مقارنة منهج سرائر أسرار النطقاء وفصوص الحكم وأهدافهما:

ومن هنا تبرز الحاجة إلى الوقوف على البناء المنهجي لكل من الكتابين، إذ لا يكفي إثبات الاشتراك في أصل التأويل، بل لا بد من تحليل الكيفية التي تم بها توظيف هذا التأويل، والغايات التي انتهى إليها كل مؤلف.

أولاً: كتاب سرائر أسرار النطقاء:

يقوم منهج هذا الكتاب على أساس فلسفي باطني، ويهدف أساساً إلى تقرير عقيدة الإمامة والخلافة عند الإسماعيلية، والنظر إلى النصوص الشرعية من خلال هذا الأصل العقدي، ثم تأويلها بما يخدم هذه العقيدة ويؤيدها.

ومن أبرز المعالم المنهجية في هذا الكتاب ما يأتي:

- يعتبر هذا الكتاب من أقدم المصنفات الإسماعيلية التي تبحث في قصص الأنبياء وأسرارهم العرفانية وحكمهم التأويلية الباطنية⁽¹³⁾.
- تأويل القصص بالمنهج الباطني وذلك باستعمال الرموز والمصطلحات الإسماعيلية.
- تفسير الآيات تفسيراً باطنياً، واستخدام المنهج التأويل الباطني الفلسفي⁽¹⁴⁾.
- الرد على بعض فرق الشيعة التي تنكر إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق⁽¹⁵⁾.

(13) انظر: البيني، جعفر بن منصور، سرائر أسرار النطقاء، تحقيق: مصطفى غالب (بيروت: دار الأندلس، 1984 م)، ص 5.

(14) كما قال في كتابه سرائر أسرار النطقاء ص 58: "قال ذو الجلال: (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) فلما وقفوا على علم الحجة ونالوا ما عنده، ترقوا في العلا وسموا إلى مرتبة الإمام الذي هو ممثل النوى الثالث، وركبوا في السفينة التي بناها نوح للنجاة والخلاص، وهي دعوة الإمام الذي أقامه نوح ونصبه، وأوجب طاعته، وأمرهم بالدخول في دعوته، وهو ركوبهم السفينة، ودخولهم في عهد الإمام الذي هو نجاة لمن ناله، وعز لمن شمله، وبقي الأكثرون في ظاهر شريعة نوح ملبسون متبعون، ولضده وفي ضلاله غارقون، فأهلكناهم وقومهم أجمعين".

(15) البيني، جعفر بن منصور، سرائر أسرار النطقاء، تحقيق: مصطفى غالب (بيروت: دار الأندلس، 1984 م)، ص 5.

- الإكثار من استخدام الرموز والإشارات وضرب الأمثال والاعتقادات لتقرير المعاني الباطنية التي يقصدها المؤلف (16).
 - التركيز على قضية الإمامة، حتى جعل دعوة نوح عليه السلام في حقيقتها دعوة إلى الإمامة، ووجوب الطاعة، والدخول في دعوة الإمام (17).
 - تحديد مدد زمنية وأحكام عقدية بناءً على استنباطات لا دليل عليها، مثل الاستدلال بطول سفينة نوح وعرضها لاستخراج مدد الإمامة والخلافة (18).
 - تقرير أن الإمامة منصب إلهي، وأن الإمام وصي من الله تعالى (19).
- ومن خلال ذلك يتضح أن منهج الكتاب يقوم على إخضاع النصوص الدينية لمذهب الإمامة الإسماعيلي، وتفسير قصص الأنبياء تفسيراً رمزياً باطنياً يخدم هذا الاتجاه العقدي.

ثانياً: كتاب فصوص الحكم:

أما كتاب فصوص الحكم فإن منهجه يقوم على أساس فلسفي صوفي باطني، ويهدف في جوهره إلى تقرير عقيدة وحدة الوجود، والنظر إلى النصوص الشرعية وقصص الأنبياء من خلال هذا التصور الفلسفي.

وقد أشار بعض الباحثين إلى أن مؤلفات ابن عربي تدور في مجملها حول هذا الاتجاه، حيث قال بعضهم: "فإن كتاب ابن عربي جميعها من واد واحد، هو وادي التصوف الفلسفي الذي لزمه طول حياته، وعاش في جوه العلمي والنظري" (20).

(16) فيقول في المصدر السابق "... فكانت السفينة حد الفرج المنتظر، إذ هي الدعوة التأويلية إلى معرفة الإمامة والحجبة" ص 59.

(17) كما ذكر ذلك بقوله: "وأما ما نص التوراة أن طول السفينة ثلاثمائة ذراع، وعرضها ستون ذراعاً فإشارة منه أن دعوة الأئمة لا تنقطع إلا بعد ثلاثين إماماً، فهم خمسة عشر قائمين بظاهر، وخمسة عشر داعين إلى باطنها، ويشيرون الخلق بما يأتي بنسخها، وإظهار شريعة غيرها، وإنما اقتصرنا على ستة أئمة وأن السابع هو القائم بتبديل الشريعة لمن عرف ذلك وعقله، ودليل ذلك أن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم افترض ثلاثين يوماً، وافترض الله علينا في صلاتنا سبعة عشر ركعة، وسبعة عشر ركعة سنة، وسبعة عشر نافلة، فذلك إحدى وخمسون ركعة".

(18) المصدر السابق.

(19) فقال مستدلاً بقوله تعالى: " (فأوا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقاً)، أمره بأن يأمر أمته بأن يأووا إلى وصيه، وأساسه علي بن ابي طالب، وموالاتهم إياه، وطاعته له، إذ هو كهف الدين، وأبو الأئمة الميامين) ص 61.

(20) محيي الدين ابن عربي، فصوص الحكم، تحقيق: أبو العلا عفيفي، الجزء: 1 (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت) ص 6.

ومن هنا عُدد هذا الكتاب من أبرز كتبه الخاصة التي صاغ فيها مذهبه بصورته الأكثر اكتمالاً، مع توظيف مصطلحات مستمدة من مصادر دينية وفلسفية متعددة، إلى جانب استعمال ألفاظ باطنية أُعيد توجيهها بما يخدم مقاصده الفكرية(21).

ويتجلى هذا المنهج في اعتماده الواسع على التأويل الرمزي والإشاري؛ إذ يتناول النص القرآني أو النبوي بإخراجه عن ظاهره إلى معان ذوقية وفلسفية، مستخدماً لغة اصطلاحية مركبة يغلب عليها الرمز والإجمال، حتى عُرف الكتاب بالغموض وصعوبة العبارة. وقد وصف بعض الدارسين أسلوبه بأنه من أكثر الأساليب تعقيداً، بحيث يتعذر فهم مقاصده دون معرفة مصطلحاته الخاصة(22).

كما بنى المؤلف كثيراً من تفريراته على دعوى أن الكتاب مأخوذ بإملاء من النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه مجرد ناقل لما أُلقي إليه(23). وهذا المسلك مكَّنه من تمرير تأويلات متعددة، مثل تفسير دعوة نوح عليه السلام تفسيراً ذا ظاهر وباطن، وحمل بعض الألفاظ القرآنية على معانٍ رمزية لا يدل عليها السياق الظاهر، مع توظيف مفاهيم مثل اللاهوت(24) والناسوت(25) في إطار وحدة الوجود(26).

وقد ترتب على هذا المنهج جملة من النتائج العقدية والتفسيرية، من أبرزها مخالفة ما قرره جمهور أهل السنة والجماعة في عدد من مسائل الاعتقاد، وتأويل الآيات بما يوافق مذهبه الفلسفي، بل تضمن بعض المواضع عبارات فهم منها انتقاص مقام الأنبياء عليهم السلام أو صرف كلامهم إلى معانٍ لا تليق بمقامهم(27).

ولذلك وُجّهت إلى الكتاب انتقادات شديدة من عدد من العلماء المتقدمين والمتأخرين، وعدوه مثلاً بارزاً للتأويل الباطني الممزوج بالتصوف الفلسفي(28).

(21) المصدر السابق.

(22) المصدر السابق ص 12، 71-72.

(23) محيي الدين ابن عربي، فصوص الحكم، تحقيق: أبو العلا عفيفي، الجزء: 1 (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت) ص 10.

(24) اللاهوت: الطبعة الإلهية. انظر: رينهارت، بيتر آن دُوزي، نقله إلى العربية وعلق عليه: مجلد 1 - 8: محمد سليم النعيمي، مجلد 9، 10: جمال الخياط، تكلمة المعاجم العربية، الجزء: 9، الطبعة: 1 (الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والإعلام، 1979 - 2000 م)، ص 192.

(25) الناسوت: الطبعة البشرية ويقابله اللاهوت. انظر: نجبة من اللغويين بجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، الجزء: 2، الطبعة: 2 (جمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة بإستانبول، ودار الفكر ببيروت، 1392 هـ) ص 895.

(26) انظر: محيي الدين ابن عربي، فصوص الحكم، تحقيق: أبو العلا عفيفي، الجزء: 1 (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت) ص 70-71، 73-74، 68.

(27) المصدر السابق ص 68، 71.

(28) المصدر السابق ص 74، 294.

وخلاصة ما تقدم أن كلاً من كتاب سرائر أسرار النطقاء وكتاب فصوص الحكم يقوم على منهج تأويلي باطني في التعامل مع النصوص الشرعية وقصص الأنبياء عليهم السلام، غير أن الغاية من هذا المنهج تختلف بين المؤلفين؛ فجعفر بن منصور اليماني يوظف هذا التأويل لخدمة عقيدة الإمامة عند الإسماعيلية وترسيخ أصول الدعوة الباطنية، بينما يوظفه ابن عربي لتقرير مذهبه الصوفي الفلسفي القائم على فكرة وحدة الوجود.

وإذا تبين من خلال ما سبق طبيعة المنهج الذي اعتمده كل من جعفر بن منصور اليماني وابن عربي، والأهداف التي سعى إليها كل منهما، فإن ذلك يمهد للوقوف على النتائج التي أفضى إليها هذا المنهج في تفسير قصص الأنبياء، من خلال مقارنة تطبيقية تكشف أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما.

المبحث الثالث: مقارنة النتائج بين سرائر أسرار النطقاء وفصوص الحكم:

وبناءً على ما تقدم من عرض المناهج وتحليل الأهداف، يمكن الانتقال إلى المقارنة بين النتائج التي انتهى إليها كل من المؤلفين، وذلك من خلال دراسة تطبيقية تكشف طبيعة توظيف قصص الأنبياء في خدمة التصورات العقيدية لكل منهما.

الأول: وجه الاتفاق:

يتفق جعفر بن منصور اليماني وابن عربي في توظيف قصص الأنبياء عليهم السلام لخدمة الاتجاهات الفكرية والعقدية التي يتبناها كل منهما، وذلك من خلال اعتماد التأويل الباطني للنصوص، واستخراج معانٍ رمزية تتفق مع معتقداتهما.

فقد أول جعفر بن منصور اليماني قصة سفينة نوح عليه السلام تأويلاً رمزياً، حيث قال: "كانت السفينة حد الفرج المنتظر"⁽²⁹⁾، وقال ابن عربي في قوله تعالى: يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا [هود: 52]، أي: "المعارف العقلية في المعاني والنظر الاعتباري"⁽³⁰⁾. ومن أوجه الاتفاق كذلك أن كليهما جعل بعض عناصر القصة القرآنية - مثل السفينة في قصة نوح عليه السلام - رمزاً لمعانٍ عقيدية خاصة يستدل بها على مذهبه⁽³¹⁾.

ومما سبق يتبين احتمال وجود قدرٍ من التقارب بينهما في بعض المعالجات التأويلية ومسالك الاستدلال، غير أن هذا التقارب لا يفضي إلى اتحاد النتيجة، بل ينتهي كل واحد منهما إلى تقرير ما

(29) اليماني، جعفر بن منصور، سرائر أسرار النطقاء، تحقيق: مصطفى غالب (بيروت: دار الأندلس، 1984 م)، ص 59.

(30) محيي الدين ابن عربي، فصوص الحكم، تحقيق: أبو العلا عفيفي، الجزء 1 (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت) ص 71.

(31) انظر: المصدر السابق، ص 73، واليماني، جعفر بن منصور، سرائر أسرار النطقاء، تحقيق: مصطفى غالب (بيروت: دار الأندلس، 1984 م)، ص 58.

يوافق مذهبه الخاص. ويؤكد ذلك ما ورد في قصة يوسف عليه السلام في شأن الرؤيا وما ترتب عليها؛ إذ أورد كل منهما القصة في كتابه بألفاظ متقاربة، ثم استنبط منها ما يراه شاهداً على صحة معتقده (32).

الثاني: وجه الاختلاف:

أما من جهة الاختلاف، فيظهر أن كلا المؤلفين قد سلك منهج التأويل الباطني نفسه، غير أن الغاية التي انتهى إليها تختلف اختلافاً واضحاً.

ففي كتاب سرائر أسرار النطقاء يعمد المؤلف إلى سرد قصص الأنبياء عليهم السلام وتأويلها بما يوافق عقيدة الإمامة عند الإسماعيلية، ويرى أن النجاة والهداية لا تتحققان إلا بطاعة الإمام والدخول في دعوته، لذلك قال المؤلف في قصة سفينة نوح عليه السلام إن المقصود من ركوب السفينة التي بناها نوح عليه السلام هي الدعوة إلى الإمام والدخول في دعوته (33).

ويبين المؤلف ما تنص عليه التوراة من أن طول السفينة ثلاثمائة ذراع، فإن هذا يدل على أن دعوة الإمام لا تنقطع إلا بعد ثلاثين إماماً. ويذكر كذلك أن ساماً هو وصي نوح وأساس دعوته، وأن الإمامة تنتقل من بعده، ويجعل هذه الفكرة نموذجاً يقاس عليه ما يراه من انتقال الإمامة في تاريخ الإسلام (34)، وهذا النصب والوصية تجري لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بحيث لما سئل النبي عن موعد القيامة، فأشار النبي بثلاثة أصابع... وأول المؤلف أن المقصود بالثلاثة هو "برز الولي من كهف التقيّة، وحكم في الناس بالسوية، وساوى بينهم في العطية، وهو قيام علي في الخلافة، وظهوره بالإمامة" (35).

ومما استدل به المؤلف على الإمامة هو قوله تعالى: فَأَوْزَأْ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا [الكهف: 16]، وذلك بأن الله أمر محمد بأن "يأمر أمته بأن يأووا على وصيه، وأساسه علي بن أبي طالب... إذ هو كهف الدين، وأبو الأئمة الميامين" (36).

(32) انظر: البيني، جعفر بن منصور، سرائر أسرار النطقاء، تحقيق: مصطفى غالب (بيروت: دار الأندلس، 1984 م)، ص 147-148، محيي الدين ابن

عربي، فصوص الحكم، تحقيق: أبو العلا عفيفي، الجزء: 1 (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت) ص 100-101.

(33) انظر: البيني، جعفر بن منصور، سرائر أسرار النطقاء، تحقيق: مصطفى غالب (بيروت: دار الأندلس، 1984 م)، ص 58.

(34) انظر: المصدر السابق، ص 59.

(35) المصدر السابق، ص 60.

(36) المصدر السابق، ص 61.

كما فسر قوله تعالى: وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ [الكهف: 17]، بأن الشمس هي الخلافة ونور الإمامة (37).

أما في كتاب فصوص الحكم، فإن ابن عربي يسرد قصص الأنبياء المأخوذة من القرآن ثم قام بتفسيره تفسيراً صوفياً؛ يهدف إلى تقرير مذهبه في وحدة الوجود.

ومن ذلك قوله إن جميع الموجودات في الكون إنما هي مظاهر للحقيقة الواحدة، حتى قال: "أن الكل ألسنة الحق ناطقة بالثناء على الحق" (38)، وجعل هذا المعنى تفسيراً لقوله تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [سورة الفاتحة: 2].

ومما يؤكد على اعتقاده بوحدة الوجود وأن جميع ما عبد هو حق، "وما عبد غير الله في كل معبود" (39)، هو أن قوله تعالى: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى [سورة الزمر: 3]، إخبار منه من أن أدنى صاحب التخيل على الحق يقول ذلك فيعبد الحجر وغيره، وهو في الحقيقة من صور الحق ومظاهره، وأما الأعلى منه فإنه يقول: فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَحْدَ قَلْبِهِ، أَسْلِمُوا [سورة الحج: 34] (40).

ويفسر ابن عربي قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام: وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ [سورة نوح: 26]، فإنه يقول: "ما قال إلهي، فإن الرب له الثبوت، والإله يتنوع بالأسماء... فأراد بالرب ثبوت التلويح إذ لا يصح إلا هو" (41).

وبعد عرض أوجه الاتفاق والاختلاف بين المؤلفين في نتائج التأويل، يحسن الوقوف على تقويم هذه التأويلات في ضوء منهج أهل السنة والجماعة، لبيان مدى موافقتها أو مخالفتها لأصول التفسير المعتمدة.

تقويم التأويلات وبيان التفسير الصحيح:

فإن التفسير الصحيح لهذه الآيات عند أهل السنة والجماعة يقوم على حملها على ظاهرها الذي دل عليه سياق النصوص الشرعية وقواعد اللغة العربية، دون تكلف في التأويل أو صرف لها إلى معان باطنية لا يدل عليها دليل.

(37) انظر: المصدر السابق.

(38) محيي الدين ابن عربي، فصوص الحكم، تحقيق: أبو العلا عفيفي، الجزء: 1 (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت) ص 69.

(39) المصدر السابق، ص 72.

(40) انظر: المصدر السابق.

(41) المصدر السابق، ص 73.

فالمقصود بالكهف -مثلاً- تحمل على ظاهرها، الذي يعني به: غار الجبل الذي يسمى بنجلوس (42)، من الإخبار عن حال الفتية، ولا تدل على معانٍ تتعلق بالإمامة أو غيرها. كما أن قوله تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [سورة الفاتحة:2] يدل على استحقاق الله للحمد لكونه رب جميع الخلق (43)، ولا يدل على القول بوحدة الوجود. وكذلك قوله تعالى: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى [سورة الزمر:3]، هو حكاية عن قول المشركين وبيان لبطلانه، لا تقرير له (44)، وغيرها من الآيات. ومن هنا يتبين أن هذه التأويلات تخالف ما عليه جمهور المفسرين من أهل السنة، الذين قرروا أن الأصل في التفسير هو بيان المعنى الظاهر للنص وفق دلالاته، مع الالتزام بضوابط الشريعة في فهمه. وخلاصة ما سبق، أن كلاً من جعفر بن منصور اليماني وابن عربي قد اعتمد على قصص الأنبياء عليهم السلام بوصفها مادة أساسية لبناء تصوره العقدي، إلا أن النتائج التي انتهى إليها كل منهما تختلف باختلاف مذهبه؛ فالأول يوظفها لخدمة عقيدة الإمامة، بينما يوظفها الثاني لتقرير التصوف الفلسفي القائم على وحدة الوجود، مع اشتراكهما في اعتماد التأويل الباطني والخروج عن ظاهر النصوص.

الخاتمة

أظهرت الدراسة أن جعفر بن منصور اليماني وابن عربي اشتركا في اعتماد التأويل الباطني منهجاً في تفسير قصص الأنبياء، من خلال صرف النصوص عن ظواهرها إلى دلالات رمزية وإشارات مخصوصة، وجعل هذه القصص وسيلة لتقرير تصورات عقديّة تتصل بالبناء الفكري لكل واحد منهما. إلا أن هذا الاشتراك في المنهج لم يؤدِّ إلى وحدة النتيجة؛ فقد اتجه جعفر بن منصور اليماني إلى توظيف هذا التأويل في خدمة الفكر الإسماعيلي وإثبات عقيدة الإمامة، في حين اتجه ابن عربي إلى توظيفه ضمن نسقه الصوفي الفلسفي، وبخاصة في تقرير مفهوم وحدة الوجود وما يتصل به من تصورات.

(42) انظر: الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، التحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الجزء: 15، الطبعة: 1 (القاهرة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، 1422 هـ)، ص 182.

(43) انظر: البغوي، محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، التحقيق: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، الجزء: 1، الطبعة: 4 (دار طيبة للنشر والتوزيع، 1417 هـ)، ص 52.

(44) انظر: المخزومي، مجاهد بن جبر التابعي، تفسير مجاهد، التحقيق: محمد عبد السلام أبو النيل، الطبعة: 1 (مصر، دار الفكر الإسلامي الحديثة، 1410 هـ)، ص 577.

كما بينت الدراسة أن كثيراً من هذه التأويلات تجاوزت المعاني الظاهرة للنصوص الشرعية كما فهمها جمهور المفسرين، وحملت النصوص ما لا يدل عليه سياقها ولا تشهد له أصول التفسير المعتبرة، الأمر الذي يبرز ضرورة مراعاة الضوابط العلمية في فهم النصوص الشرعية وتفسيرها. ومن ثم، فإن هذه الدراسة تسهم في الكشف عن الفروق المنهجية بين التفسير المنضبط بدلالة النصوص وقواعد الاستدلال، وبين التأويلات الباطنية القائمة على مقدمات فكرية سابقة، كما تمهد لمزيد من الدراسات المقارنة في مجال توظيف النصوص الشرعية لدى الاتجاهات الباطنية والفلسفية.

فهرس المصادر

- Al-Baghawī, Muḥammad ibn al-Ḥusayn, (bitaḥqīq Muḥammad ‘Abdullāh al-Namr, ‘Uthmān Jum‘ah Ḍumayriyyah, wa Sulaymān Muslim al-Ḥarsh). *Ma‘ālim al-Tanzīl fī Tafsīr al-Qur‘ān*. Al-Mujallad: 1. Al-Ṭab‘ah: IV. Al-Riyāḍ: Dār Ṭayyibah li al-Nashr wa al-Tawzī‘, 1417 H.
- Al-Dhahabī, Muḥammad ibn Aḥmad. *Siyar A‘lām al-Nubalā’*. Al-Mujallad: 23. Al-Ṭab‘ah: III. Bīrūt: Mu‘assasat al-Risālah, 1985 M.
- Al-Jurjānī, ‘Alī ibn Muḥammad. *Al-Ta‘rīfāt*. Al-Mujallad: 1. Al-Ṭab‘ah: I. Bīrūt: Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, 1403 H.
- Al-Kutbī, Muḥammad Shākir, (bitaḥqīq Iḥsān ‘Abbās). *Fawāt al-Wafayāt*. Al-Mujallad: 3. Al-Ṭab‘ah: I. Bīrūt: Dār Šādir, 1974 M.
- Al-Sa‘dī, ‘Abd al-Raḥmān ibn Nāṣir, (bitaḥqīq ‘Abd al-Raḥmān ibn Mu‘allā al-Luwayḥiq). *Taysīr al-Karīm al-Raḥmān*. Al-Mujallad: 1. Al-Ṭab‘ah: I. Bīrūt: Mu‘assasat al-Risālah, 1420 H.
- Al-Shahrastānī, Muḥammad ibn ‘Abd al-Karīm. *Al-Milal wa al-Niḥal*. Al-Mujallad: 1. Bīrūt: Mu‘assasat al-Ḥalabī, d.t.
- Al-Ṭabarī, Muḥammad ibn Jarīr, (bitaḥqīq ‘Abdullāh ibn ‘Abd al-Muḥsin al-Turkī). *Jāmi‘ al-Bayān ‘an Ta‘wīl Āy al-Qur‘ān*. Al-Mujallad: 15. Al-Ṭab‘ah: I. Al-Qāhirah: Dār Hajr li al-Ṭibā‘ah wa al-Nashr wa al-Tawzī‘ wa al-I‘lān, 1422 H.
- Al-Yamanī, Ja‘far ibn Manṣūr, (bitaḥqīq Muṣṭafā Ghālib). *Sarā‘ir Asrār al-Nuṭaqā’*. Bīrūt: Dār al-Andalus, 1984 M.
- Ibn ‘Arabī, Muḥyī al-Dīn, (bitaḥqīq Abū al-‘Alā ‘Afīfī). *Fuṣūṣ al-Ḥikam*. Al-Mujallad: 1. Bīrūt: Dār al-Kitāb al-‘Arabī, d.t.
- Ibn Kathīr, Ismā‘īl ibn ‘Umar, (bitaḥqīq Sāmī ibn Muḥammad al-Salāmah). *Tafsīr al-Qur‘ān al-‘Aẓīm*. Al-Mujallad: 8. Al-Ṭab‘ah: II. Al-Riyāḍ: Dār Ṭayyibah li al-Nashr wa al-Tawzī‘, 1420 H.
- Ibn Qutaybah al-Dīnawarī, ‘Abdullāh ibn Muslim. *Uyūn al-Akḥbār*. Al-Mujallad: 5. Bīrūt: Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, 1418 H.
- Majma‘ al-Lughah al-‘Arabiyyah bi al-Qāhirah. *Al-Mu‘jam al-Wasīṭ*. Al-Mujallad: 2. Al-Ṭab‘ah: II. Al-Qāhirah: Majma‘ al-Lughah al-‘Arabiyyah; Iṣṭanbūl: Dār al-Da‘wah; Bīrūt: Dār al-Fikr, 1392 H.
- Mujāhid ibn Jabr, (bitaḥqīq Muḥammad ‘Abd al-Salām Abū al-Nīl). *Tafsīr Mujāhid*. Al-Ṭab‘ah: I. Al-Qāhirah: Dār al-Fikr al-Islāmī al-Ḥadīthah, 1410 H.
- ‘Umar, Aḥmad Mukhtār. *Mu‘jam al-Lughah al-‘Arabiyyah al-Mu‘āṣirah*. Al-Mujallad: 3. Al-Ṭab‘ah: I. Al-Qāhirah: ‘Ālam al-Kutub, 1429 H.
- Zahīr, Iḥsān Ilāhī. *Al-Ismā‘īliyyah: Tārīkh wa ‘Aqā‘id*. Al-Riyāḍ: Maktabat Bayt al-Salām, d.t.